8

الدين العلمى

فى عام ١٦١٠، نَعى الشاعر الإنجليزى چون دون (١٥٧٢– ١٦٣١) حالَ العالم حيث اعتقد أنه فى سبيله إلى ولوج مرحلته النهائية. كان دون، المحافظ بعمق، أحد ضحايا حركة الإصلاح الدينى. كان قد ولد لعائلة كاثوليكية، لكنه تخلى عن عقيدية بعد وفاة شقيقه فى السجن بتهمة إيواء كاهن كاثوليكى، ثم أصبح معاديا ضارياً للكاثوليكية الجديدة. كانت الاكتشافات العلمية الجديدة قد تسببت له فى عميق القلق، إذ إنها قد بدت، وبأسلوب متعمد نزواتى، وأنها دمّرت الرؤية الكونية القديمة للكمال والتناغم. كانت تلك أوقاتا عصيبة. كانت أوروبا فى براثن كساد اقتصادى وقلقلةٍ اجتماعية لازمت التحديث، وبالرغم من هذا، ووسط كل هذا الارتباك فقد ألقت «الفلسفة الجديدة» (كان لفظ الفلسفة مرادفا للعلم) بظلال الشك على كل شىء:

كل شيء مشظى، اختفى كل التلاحم،

كل مصدر وطيد وكل رابط

«قصيدة تشريح العالم، چون دون»

بدا وأن العالم قد تعرض لزلزال هائل. شوهِدتْ نجوم جديدة فى السماء، واختفت أخرى. لم تعد السماوات تحتفظ «بتناسبها الكروى المستدير الذى يحتضن كل شىء»، ويقال إن الكواكب تتجول هائمة، فى «مناطق غريبة» تنتهك «الشكل الأصيل» الذى كان الرجال قد لاحظوه منذ أزمان بعيدة. حينما تتغير كل تلك الأساسيات، كيف لإنسان أن يظل متيقنا من الحقيقة؟

لم يكن دون وحيدا فى تشاؤمه. فى العام ذاته، اغتال متعصب كاثوليكى

هنرى الرابع النڤارونى، الذى كان الشخص الوحيد الذى بدا وأنه قادر على القضاء على العنف الطائفى الذى كان يهدد باجتياح أوربا بأكملها. سرعان ما أدرك الناس ذلك الحادث مثل نقطة تحول مأساوية وكان له وقع على أوربا فى القرن السابع عشر يماثل وقع اغتيال الرئيس كيندى فى أمريكا. كان هنرى عازما على احتواء العواطف الدينية الجامحة التى كانت سببا للنزاعات القاتلة فى فرنسا واتبع سياسة حياد صارم. كان قد منح الحريات المدنية للبروتستانت الفرنسيين، وحينما فَصَل البرلمان أعضاءه الجزويت، أمر هنرى بإعادتهم. بعثت وفاته، التى صدمت الكاثوليك والبروتستانت المعتدلين معاً، برسالة قاتمة كئيبة: لقد جُربت سياسة التسامح وفشلت. وبحلول عام ١٦٠٠، كانت إنجلترا فى طريقها إلى اندلاع حرب أهلية، وكانت الإمارات الألمانية

تناضل للحصول على الاستقلال من الإمبراطورية الرومانية المقدسة لتقيم دولا قومية. دعمت السويد الأمراء البروتستانت، ودعمت أسرة الهابسبورج النمساوية الكاثوليك. وفي عام ١٦١٨، تصاعد الصراع ليصبح حرب الثلاثين عاما الشاملة والتي قُتل فيها ٣٥٪ من السكان وحولت أوربا الوسطى إلى مستودع للجثث. من الواضح أنه لم يكن باستطاعة الدين التوفيق بين الأطراف المتحاربة. وكان كلما تفاخر المتعصبون الكاثوليك وتباهوا بذبح البروتستانت، وقام البروتستانت، بحس من النشوة، بحرق معاقل الكاثوليك عن آخرها تملك المعتدلين ونوى النوايا الحسنة مزيد من اليأس.

لكن، لم يشارك الجميع چون دون في ظنونه السيئة حول «الفلسفة الجديدة». يبرهن لنا الجزويتي الفلامنكي، ليونارد لسيوس (١٥٥٤- ١٦٢٣) وكان أحد أبرز اللاهوتيين في أوربا، على أن رؤية الڤاتيكان الأحادية الضيقة لم تكن موضع قبول من الكاثوليك جميعهم. كان لسيوس ملتزما بالإصلاح الديني الكاثوليكي، وكان قد درس في روما تحت بلارمين، ولدى عودته إلى جامعة لوڤان أدخل أعمال توماس الإكويني في «زيها المستحدث» إلى مقررات الدراسة. لكنه أيضا، كان رجلا من عصر النهضة، منفتحا على كل تيارات العالم الحديث المبكر الفكرية المتغيرة. درس القانون والاقتصاد، وكان من أوائل الذين قدّروا دور المال في الاقتصاد الرأسمالي الوليد. في عام ١٦١٢، بعد نشر «المراسل النجمي» لجاليليو بمجرد عامين فقط، لم يكتف لسيوس بمديح اكتشافاته، بل استطاع أن يؤكدها لأنه أيضا كان قد لاحظ بواسطة تلسكوبه سطح القمر المليء بالحفر والأقمار التي تتبع المشترى. ملأه «إعجاب هائل» حينما أبصر هذه الأدلة على «حكمة الله وقدرته».

جاءت تلك التعليقات ضمن أهم عمل له، أي بحثه المعنون «القدرة الإلهية

وأبدية الروح» (١٦١٤)، والذى كان موجها «ضد الملحدين والسياسيين». فى تلك السنوات، كان ثمة قلق من ظهور «الإلحاد»، رغم أن التعبير، آنذاك، لم يكن يعنى الإنكار الكلى لوجود الله، بل كان يشير إلى أى معتقد يرى الكاتب أنه غير صحيح. اعتبر لسيوس أن «الإلحاد» كان هرطقة تنتمى للماضى: أن «الملحدين» الوحيدين الذين كان بإمكانه أن يسميهم كانوا هم الفلاسفة الإغريق القدماء. كان ديموقريطوس قد تخيل جزئيات لا حصر لها، صغيرة بدرجة أنها «غير قابلة للانشطار» ذرات تتسارع فى فضاء خالٍ، وتتصادم بين حين وآخر لتشكل الأجسام المادية الموجودة فى عالمنا. كان ثمة اهتمام آنذاك فى أوروبا بالمذهب الذرى الذى يرى أن العالم مكون من ذرات؛ وكان بالتأكيد قد تسبب قلق فى چون دون. تواءم فضاء ديموقريطوس اللامتناهى مع كون كوبرنيكوس بعد أن جُرِّد من العوالم السماوية. لكن لم يكن ديموقريطوس قد رأى حاجة إلى وجود إله بصير رقيب، ولم يقبل لسيوس هذا الرأى. قال، وهو يستشهد بفلسفة شيشرون الرواقية التنسكية، إن خطة العالم الطبيعى المعقدة تقتضى وجود خالق ذكى. إن إنكار يد القدرة الإلهية هو أمر عبثى تماما مثل القول «إن قصرا جميلا عظيما مهيبا» قد أقيم «فقط بواسطة تقابل قطع معينة من الحجارة واختلاطها فجأة لتكون هذا الشكل الفنى المدهش».

كان مارتن ميرسن، عالم رياضيات فرنسيا، وراهبا فرانسيكانيا (١٥٨٨–١٦٤٨)؛ وكان عالما ملتزما دعم جاليليو حينما كان دعمه غير ملائم سياسيا. لكنه لم يجد صعوبة فى بحثه بعنوان «جحود مؤلهى الطبيعة والملحدين والمنحلين فى زماننا» فى تعريف «الملحدين» المحدثين وتحديدهم. لم يكن أحد ممن ذكرهم قد أنكر وجود الله: كان بعضهم من أمثال الكاهن الباريسى

الورع پيير شارون (١٥٤١- ١٦٠٣)، أو فيلسوف مدينة بادوا الإيطالى جرونيمو كاردانو (١٥٠١ ١٦٠٣)، كانوا فقط يتشككون فى قدرة العقل الإنسانى على التوصل إلى أية حقيقة نهائية[١]. ولمجابهة كل هذا، طور ميرسن صيغة مسيحية من المذهب الذرى أضاف فيه إلها خالقا إلى كون ديموقريطوس. رأى أنه ليس للذرات ذكاء أو هدف، من ثم فليس للطبيعة قوة سحرية خاصة بها، وهى تعتمد كلية على محرك الكون الأعظم. من المهم ملاحظة أن كلا من لسيوس وميرسن، فى مجابهتهما لـ «الإلحاد»، اتجها تلقائيا إلى علوم العالم القديم وفلسفته بدلا من تقاليده اللاهوتية الخاصة. كان توماس الإكوينى قد أصر على أننا ليس باستطاعتنا تعلم أى شىء عن طبيعة الله من خليقته؛ فقد أقنع التعقيد – الذى كان العلماء يكتشفونه فى الكون – اللاهوتيين أن الله لابد وأنه مُصمِّم ذكى. لم يكن لتوماس أن يتفق مع تلك الرؤية لو تأتى له الاطلاع عليها.

كان ميرسن حاضرا فى مؤتمر بباريس عام ١٦٢٨، حيث استمع مجموعة من الفلاسفة البارزين إلى بحث نقدى جرىء للفلسفة المدرسية المتزمتة فى حضور الكاردينال پييردو بيرول (١٥٧٥- ١٦٢٩) السفير البابوى. كان بين الحضور أيضا الفيلسوف والعالم رينيه ديكارت (١٥٩٦- ١٦٥٠) الذى رفض المشاركة فى التصفيق. شرح ديكارت موقفه بالقول إن المجتمعين قد ارتكبوا خطأ جوهريا بأن اكتفوا بمعرفة لا تتعدى كونها محتملة. قال إنه قد طور نهجا فلسفيا مؤسسا على العلوم الرياضية ينتج عنه يقين مطلق. لم يكن

(١) كان ميرسن قد أبدى قلقا خاصا من فلسفة برونو التى أسسها على عبادات الأسرار القديمة حيث اعتقد أن للطبيعة قواها المقدسة وليست بحاجة إلى إشراف إلهى، ومن ثم أدرجه ميرسن ضمن الملحدين.

النهج سهلا، لكن إذا تمت متابعته بدأب لفترة طويلة من الزمن، يمكن تطبيقه بفاعلية، على أى مجال للمعرفة، بما فى هذا علم اللاهوت. وبعد المؤتمر، انتحى بيرول بديكارت جانبا وأخبره أن لديه واجبا – بل لديه حقا مهمة مقدسة – لنشر نهجه إذا اعتقد أن بإمكانه أن ينقذ أوربا من الهاوية التى سقطت فيها.

كان ديكارت قد تلقى تعليمه فى كلية الجزويت لا فليش بأنجو، والتى كان هنرى الرابع قد أنشأها، وهناك تم حفزه على القراءة الواسعة. كان قد شعر بالإثارة العارمة حينما قرأ جاليليو للمرة الأولى، وكان فكر مونتينيه التشككى قد ملك عليه لبه، هذا على الرغم من أنه بمرور الوقت أصبح على قناعة أن تلك لم تكن الرسالة المناسبة إلى عالم مزقته الدوغما المتحاربة والتى بدت وأنها لا يمكنها العثور على حقيقة تجْمع حولها الناس. كانت أهوال زمن ديكارت قد تركت علامته على فلسفته. فقد كان حاضرا أثناء مراسم حفظ قلب هنرى الرابع، شهيد التسامح، بوعاء مقدس فى كاثدرائية لا فليش. ظل مقتنعا، طوال حياته، أن باستطاعة كل من الكاثوليك والبروتستانت أن يأملوا فى دخول الجنة. كانت غايته هى العثور على حقيقة يمكن للجميع – الكاثوليك البروتستانت، المسلمين، الربوبيين، و«الملحدين»– أن يتفقوا حولها بحيث يستطيع كل الناس من ذوى النوايا الطيبة والإرادة الخيرة العيش معا بسلام.

تشكلت أفكار ديكارت فى ميادين قتال حرب الثلاثين عاما. كان بعد تركه المدرسة، قد التحق بجيش موريس، كونت ناسو (١٥٦٧– ١٦٢٠)، وسافر فى أنحاء أوربا بصفته جنتلمان جندى، والتقى ببعض أهم علماء الرياضيات وفلاسفة العصر. زعم فيما بعد أنه تعلم فى الجيش أكثر بكثير مما كان سيتعلمه لو أنه التحق بالجامعة. ولأنه شهد الحرب مباشرة، أصبح مقتنعا

بأنه من الضرورى العثور على وسيلة للخروج من ذلك الطريق المسدود الذى بدأ وأنه فى سبيله إلى تحطيم الحضارة ذاتها؛ بدا كل شىء وأنه يتهاوى. اعتقد أن الوسيلة الوحيدة للسير قدما هى الرجوع إلى المبادئ الأولى والبدء من جديد. فى عام ١٦١٩، انتقل إلى جيش ماكسيمليان الأول البقارى. وفيما كان مسافرا فى طريقه للقيام بواجبات منصبه الجديد، أجبرته عاصفة ثلجية على الالتجاء إلى غرفة صغيرة، يدفئها موقد بجوار أولم على نهر الدانوب. وهناك، تسنى له أخيراً أن يجد الوقت للتأمل الجاد الانفرادى، وقد كان أثناء عزلته تلك أن ابتدع نهجه. خبر ثلاثة أحلام أضاءت له فكره، أُمِر خلالها بأن يضع أسس «علم مدهش» يجمع به كل المباحث معا – اللاهوت، الحساب، الفلك، الموسيقى، الهندسة، البصريات، والفيزياء – تحت مظلة الرياضيات. كان تحدى مونتينيه فى خاتمة «دفاعا عن ريموند سبوند» يطارد ديكارت، حيث ورد فيه التالى: «إذا لم نستطع العثور على شىء واحد نشعر نحوه بيقين تام، فلن نستطيع التأكد من شىء بإطلاقه». فى معزله، قلب ديكارت تشكك مونتينيه رأسا على عقب وجعل من خبرة الشك أساسا لليقين.

أصر، أولا، على أن على المفكر تفريغ عقله من كل ما اعتقد أنه يعرفه. عليه، هكذا أخبر نفسه ألا «أتقبل أى شىء بصفته حقيقيا إلا إذا عرفت بوضوح أنه كذلك : أى أن أتجنب بعناية التسرع فى الأحكام والتحيز لها، وألا أتقبل منها أى شىء أكثر مما طُرِح فى عقلى بجلاء وتميز بدرجة لا أجد معها أية فرصة أو سبب للشك فيه». كانت تلك صيغة معقلنة من طريق دنيس للإنكار. ينبغى على العالِم أن يُفرغ عقله من حقائق الكشف والتنزيل والموروثات. ليس بوسعه الوثوق فى أدلة حواسه، لأن البرج الذى يبدو مستديرا عن بعد قد يكون فى واقع الأمر مربعا. ليس بوسعه حتى أن يكون

على يقين من أن الأشياء المحيطة به حقيقية: كيف يتسنى لنا أن نعرف أننا لم نكن نحلم حينما رأيناها، سمعناها، أو لمسناها؟ كيف لنا أن نثبت أننا كنا مستيقظين؟ كان هدفه هو العثور على أفكار بدهية، جلية فى حد ذاتها وبأسلوب مباشر؛ فقط الحقائق «الواضحة» و«المميزة» يمكنها أن تمده بأساس لرياضياته الشمولية.

وفى النهاية وجد ديكارت ما كان يبحث عنه. انتهى إلى القول: لاحظت أننى فيما كنت أرغب فى الاعتقاد بأن كل الأشياء زائفة كانت الضرورة المطلقة تقتضى أن «أنا» يجب أن تكون موجودة»:

«لاحظت أن حقيقة: أنا أفكر إذاً فأنا موجود» كانت يقينية ومؤكدة بدرجة أن غالبية الافتراضات المبالغ فيها التى يطرحها المتشككون لم يكن بإمكانها زعزتها، ووصلت إلى الاستنتاج أن بإمكانى تقبل صوابها دونما تردد بصفتها أول مبدأ للفلسفة التى أسعى إليها».

كان ذلك هو الشىء اليقينى الأوحد الذى أجاب على تحدى مونتينيه. فقد كشفت خبرة الشك الباطنى عن يقين ليس بوسع أى شىء فى العالم الخارجى توفيره. حينما نخبر ذواتنا تفكر وتتشكك نصبح مدركين لوجودنا. نهضت الذات، بأسلوب يتعذر تجاهله، من أعماق الذهن بواسطة تدريبات الشك المنهجية: «ما إذن أنا؟ شىء يفكر. ما الشىء الذى يفكر؟ إنه الشىء الذى يشك، يفهم، يدرك، يجزم، ينكر، يُعمل إرادته، يرفض، وأيضا يتخيل ويحس». قلب مبدأ ديكارت الشهير «أنا أفكر إذا أنا موجود» بحنكة، نظرية المعرفة الأفلاطونية التقليدية القائلة: «أنا أفكر، إذاً ما أفكر فيه موجود». كان العقل الحديث وحيدا، مستقلا بذاته، وعالما فى نفسه وبنفسه، لا يتأثر بالمؤثرات الخارجية، منفصلا عن جميع الأشياء الأخرى.

من جوهر اليقين هذا الذى يتعذر اختزاله مضى ديكارت ليثبت وجود الله وحقيقة العالم الخارجى. رأى الكون المادى بلا حياة بلا رب، جامداً خاملاً، ومن ثم فليس بوسعه إخبارنا بشىء عن الله. الشىء الحى الوحيد فى النظام الكونى بأكمله هو النفس التى تفكر، وعلينا البحث عن اليقين القاطع هناك، داخلها. من الواضح أن ديكارت كان قد تأثر بأوغسطين وآنسلم. فالشك يكشف عن عدم كمال الشخص الذى يفكر، لأننا حينما نشك فنحن ندرك بحدة أن ثمة شيئاً مفقودا. لكن خبرة عدم الكمال تفترض مسبقا وجود فكرة سابقة عن الكمال، الذى هو تعبير نسبى، يُفهم فقط فى ضوء وجود الكمال المطلق. ومن المحال لكائن محدود فانٍ أن يكون قد أدرك فكرة الكمال من خلال جهوده الخاصة، من ثم، رأى ديكارت أن الاستنتاج المنطقى هو أن «فكرة الكمال تلك قد وضعتها داخلى طبيعة أكثر كمالا مما علية طبيعتى، والتى يوجد داخلها جميع أنواع الكمال التى يمكننى تكوين فكرة عنها – أى، وبإيجازها فى كلمة واحدة، إنها الله». وخلاف ذلك، كيف يتأتى لنا أن نعرف أننا نشك ونرغب – أننا نفتقد شيئاً، ومن ثم، فلسنا كاملين – إذا لم توجد داخل أنفسنا فكرة متأصلة تمكننا من التعرف على عيوب طبيعتنا؟

كان غالبية اللاهوتيين عصر الأوسطيين قد رفضوا برهان آنسلم الوجودى، رغم ديناميته الصامتة، لأنه كان قد أسمى الله «شيئاً لابد أن يكون موجوداً». لكن ديكارت زعم أن الله فكرة «واضحة ومميزة» فى العقل البشرى وكان راضيا ومقتنعا تماما بتطبيق لفظ «وجود» على الله. وعلى حين أن توماس كان قد قال إن الله ليس «نوعا من الأشياء» لم يجد ديكارت أية صعوبة فى أن يسمى الله «كائنا» لكنه «الكائن الأول المهيمن المطلق». ومثل آنسلم، رأى الوجود أحد أوجه الكمال «لأنه ليس بوسعى أن أفكر فى الله من

دون وجود (أى التفكير فيه ككائن الكمال لكن ينقصه أحد أوجه الكمال الفائقة)، هذا على الرغم من أن بوسعى تخيل حصان إما بجناحين أو بدون جناحين». كانت هذه الحقيقة فى مثل وضوح – إن لم تكن أكثر وضوحا – من نظرية فيثاغورس عن الزاوية القائمة. «من ثم، فإنه من اليقينى، على الأقل، أن الله، وهو الكائن الذى بهذا القدر الجم من الكمال، موجود، أو (يكون)، بنفس قدر اليقين الذى نبرهن به على أية نظرية فلسفية».

كان الله ضروريا جداً لفلسفة ديكارت ونظرياته العلمية، لأنه لم يكن ليثق فى حقيقة وجود العالم الخارجى بدون الله. ولأننا ليس بإمكاننا الثقة فى حواسنا، فإن وجود الأشياء المادية «مشكوك فيه وغير يقينى». لكن الكائن الكامل هو الحقيقة ذاتها، ولم يكن له ليسمح أن نظل مخطئين حول مثل هذا الأمر الجوهرى:

«على هذا الأساس وحده فالله ليس بمخادع، وبناء على ذلك، لم يسمح بأى زيف أن يوجد فى رأيى دونما أن يمنحنى فى نفس الوقت ملكة تصويبه؛ من ثم، فبإمكانى أن أمل بيقين أن أستنتج أن لدىَّ، داخلى، وسيلة الوصول إلى الحقيقة».

اعتقد أن ما نعرفه عن العالم الخارجى نعرفه بنفس الأسلوب الذى يعرفه الله بالضبط؛ وهكذا، فبوسعنا أن نتوصل إلى نفس الأفكار «الواضحة» و«المميزة» مثل الله.

وبمجرد ما تأكد ديكارت من وجود العالم المادى، غدا بوسعه المضى إلى الجزء الثانى من مشروعه: إيجاد نهج علمى أوحد بإمكانه أن يأتى بالعالم الذى يدور خارج نطاق التحكم، يأتى به تحت سلطة العقل. ومع رغبته فى

التحكم فى الواقع، لم يكن بمقدور ديكارت تقبل فكرة أن النظام الكونى أتى إلى الوجود بالصدفة المحضة. كان نظامه الكونى ماكينة مُعقدة جيدة التزييت، أطلق إله كلى القدرة حركتها، ويُبقى عليها مُصانة. ومثل ميرسن أحيا ديكارت المذهب الذرى الإغريقى لكن بإضافة مهمة، وهى الخالق البصير الرقيب. كان الله، لدى لحظة الخليقة، قد فرض قوانينه الرياضية على الذرات، ومن ثم، فحينما تصطدم ذرة بأخرى لا يحدث ذلك بالصدفة لكن وفقا لمبادئ إلهية غرست فى الذرات وَرَسَخَتْ. وبعد أن أطلق حركة كل شىء، لم يكن ثمة ضرورة لأى فعل إلهى آخر، من ثم، كان بوسع الله أن ينسحب من العالم ويسمح له أن يدير نفسه.

بدا مثل ذلك الكون الذى يعمل بانتظام ودقة مثل الساعة على قدر عميق من الجاذبية فى وقت الاضطرابات السياسية المخيفة. كان ديكارت، وهو الكاثوليكى الورع، قد خبر «نهجه» بصفته كشفاً وهبه الله إياه، ومن ثم أقسم، من منطلق شعوره بالامتنان أن يذهب للحج إلى مزار العذراء بمدينة لوريتو الإيطالية رغم ما عليه هذا القسم من غرابة. بيد أن فلسفة ديكارت كانت على قدر عميق من عدم اليقين: كان إلهه، تلك الفكرة الواضحة فى ذهنه، قد قطع مسافة كبيرة من الطريق كى يصبح صنماً؛ كما أن تأمله فى عملية التفكير ذاتها لم ينجم عنه «تفريغ للذات» بل توكيد انتصارى لها. لم ينطو لاهوت ديكارت على أية رهبة: بل إنه فى واقع الأمر اعتقد أن مهمة العلم هى تبديد الشعور بالدهشة. ذكر أن الناس فى المستقبل سينظرون إلى السحب، مثلا، «بأسلوب لا يعود لدينا معه ثمة داع للدهشة من أى شىء نراه فيها، أو أى شىء ينزل منها».

حينما أهدى كتابه «تأملات فى مبادئ الفلسفة» إلى «عميد كلية اللاهوت

المقدسة بباريس وأساتذتها المرموقين المشهورين» ضمَّن الإهداء زعما مثيرا للدهشة قال: «لقد ظللت أرى دائماً أن السؤالين حول الله والروح هما السؤالان الرئيسيان اللذان يجب إثباتهما بالحجج الفلسفية (أى «العلمية») لا اللاهوتية». وفى توقع واضح منه أنهم سيوافقونه، أبلغ ديكارت بهدوء كيان اللاهوتيين الأبرز بأروبا، أن درجة كفاءتهم لا تمكنهم من مناقشة الله، وأن الرياضيات والفلسفة ستضطلعان بالمهمة بفاعلية أكثر. كان كل اللاهوتيين على استعداد تام ليوافقوه. وكانت تلك خطوة مصيرية حاسمة، إذ إنه منذ آنذاك، أخذ اللاهوت يُترجَم، بتزايد، إلى مصطلحات «فلسفية» و«علمية» غريبة عنه.

• • •

استثارت فكرة الكون الآلى الذى تتحكم فيه نفس القوانين الجلية المطلقة القاطعة فى كل الأزمنة والأماكن حتى هؤلاء الذين كان بإمكانهم رؤية عيوب رياضيات ديكارت الشاملة. وبتزايد، أخذ الناس ينظرون إلى الكون الآلى كنموذج للمجتمع. على المواطنين أن يخضعوا لحكومة عقلانية بنفس الأسلوب الذى تطيع به أجزاء الكون المختلفة القوانين العقلانية للإله العلمى. أيضا، أسرلب الناس القول بوجود نهج أوحد يؤدى، دونما خطأ، إلى الحكمة واليقين ويجعل وجود الله ضرورياً جليًا شفافا يمكن إدراكه مثل إحدى نظريات إقليدس. اعتقدوا أنه سرعان ما سيصبح الشك وعدم اليقين أشياء تنتمى للماضى.

فى السنوات التى تلت حرب الثلاثين عاما حيث تورط الدين بقوة. اعتقد الناس أن بإمكان العقل وحده خلق ظروف سلام يمكن الحفاظ عليه وصيانته. كان الفيلسوف الألمانى جوتفرد ولهلم لايبنتز (١٦٤٦- ١٧١٦) يعمل أيضا

بالسلك الديبلوماسى وعمل دون كلل أو ملل على التوفيق بين الدول القومية الأوروبية. كان أحد مشاريعه الرئيسية هو تشكيل لغة مبنية على المبادئ الرياضية يتمكن بها الناس من التحدث إلى بعضهم بوضوح وتحديد. أما الفيلسوف الإنجليزى جون لوك (١٦٣٦– ١٧٠٤) فكان مقتنعا أن التعصب الدينى الذى مزق أوربا كان ببساطة بسبب فكرة الناس القاصرة عن الله. إذا أتيح للناس استخدام قواهم العقلانية وبحرية سيكتشفون الحقائق لأنفسهم، لأن العالم الطبيعى ملىء بالأدلة على وجود الله. اعتقد أنه لم يعد ثمة حاجة للكشف أو التنزيل، أو الطقوس، أو الصلوات أو مبادئ الخزعبلات. فحيث كان اللاهوتيون قبل الحداثيين متيقظين دوما لخطر أن يصبح الله إسقاطا تصورياً وثنيا، رأى لوك أننا «حينما نريد استنباط فكرة، أعظم فكرة بإمكاننا أن نأتى بها كى تناسب الكائن الأعظم، فإننا نقوم بتكبير كل فكرة صغيرة لدينا من خلال فكرتنا عن اللامتناهى، ونضعها كلها معا، و نشكل فكرتنا المعقدة المركبة عن الله».

لكن عالم الرياضيات الفرنسى بليز پاسكال (١٦٢٣– ١٦٦٢) وكان متدينا ورعاً، عاد إلى الفكرة الأقدم القائلة بأن الوجود الإلهى مختبئ فى الطبيعة (الحلول) وأنه لا جدوى من محاولة العثور عليه هناك. رأى أن الكون الآلى بلا رب، مخيف، فارغ من المعنى:

«حينما أرى حالة الإنسان العمياء، التعيسة، حينما أستعرض الكون كله فى مواته وقد تُرك الإنسان بلا ضوء، وكأنما قد ضل طريقه فى هذا الركن من الوجود دون أن يدرى مَنْ وضعه هناك، أو ما عليه أن يفعله، أو ما سيئول إليه حينما يموت، غير قادر على معرفة أى شىء، يتملكنى الرعب، مثل رجل نُقل أثناء نومه إلى جزيرة صحراوية رهيبة، ويستيقظ يائسا ضالا دونما

وسيلة للهرب. هنا، يتملكنى العجب من كيف أن حالة الإنسان التعيسة تلك لا تؤدى بالناس إلى اليأس».

اعتقد پاسكال أن اليقين لا يأتى من تأمل الأفكار «الواضحة» و«المميزة» لكن من «القلب» الجوهر الباطنى للإنسان. سجّل فى «التذكرة Memorial» التى كان قد خاطها فى بطانة صدريته، تجربة كانت قد ملأته بـ «اليقين، اليقين، بهجة خالصة من القلب، وسلام». أتته من رب إبراهيم وإسحق ويعقوب، لا من إله «الفلاسفة والباحثين».

كان بإمكان پاسكال أن يرى أن المسيحية كانت فى سبيلها لارتكاب أخطاء جسيمة وذلك لأن رجال اللاهوت كانوا متحمسين لاعتناق الكفر الحديث وجعل تعاليمهم تتطابق مع الأفكار «الواضحة والمميزة» التى أصبحت موضة، لكن إلى أى حد يمكن السماح للعلم الجديد أن ينتهك مجال الدين؟ فإن الإله الذى لا يتعدى أن يكون «مؤلف الحقائق الرياضية وصانع نظام العوامل الطبيعية» ليس بإمكانه أن يأتى بالنور إلى ظلمة الوجود البشرى وآلامه. فلن يتسبب «ذلك الإله» إلا فى إلحاد الناس. كان پاسكال بين أول من رعوا أن الإلحاد بمعنى الإنكار التام لوجود الله – سرعان ما سيصبح خيارا جديا. فالشخص الذى لم يشارك فى الطقوس والتدريبات والممارسات الدينية لن تقنعه حجج الفلاسفة؛ لأن الإيمان بالنسبة لمثل هذا الشخص، بإمكانه أن يكون رهانا فقط، قفزة فى الظلام. كان پاسكال قد طور قواه العقلانية ونمّاها بأكثر من غالبية الناس: قام وهو فى الحادية عشرة باستنباط حلول الفرضيات الثلاثة وعشرين الأولى لإقليدس، ثم نشر وهو فى السادسة عشرة بحثا لافتا عن الهندسة، ثم اخترع آلة حاسبة وبارومتر، وآلة طباعة هيدروليكية. لكنه كان يعلم أن العقل وحده لا يستطيع أن يأتى بالقناعة الدينية، وأن «القلب» وحده لديه أسبابه للإيمان.

فى هولندا، كان فيلسوف يهودى قد طور رؤية إلحادية كانت أكثر راديكالية وأشد تدينا فى آن من رؤيتى ديكارت ولوك. فى عام ١٦٥٥، وبعيد وصول برادو إلى أمستردام، توقف الشاب باروخ سپينوزا (١٦٣٢- ١٦٧٧) عن حضور المراسم الدينية وبدأ يجهر بشكوك جدية حول اليهودية التقليدية. كان سپينوزا قد وُلد فى أمستردام لأبوين كانا قد عاشا كيهود خنزيريين بالبرتغال لكنهما نجحا فى التكيف مع اليهودية الأرثوذكسية. كانت حياة الأغيار الثقافية متاحة له دائما، وكان قد تلقى تعليما يهوديا تقليديا بالإضافة إلى دراسة الرياضيات والفلك والفيزياء. لكنه، ونظرا لأنه كان يعيش فى بيئة يهودية خنزيرية (مارانو) فقد كان معتادا على فكرة الدين العقلانى الخالص، ورأى أنه ما نسميه «الله» هو ببساطة المجموع الكلى للطبيعة ذاتها. وفى النهاية، أصدر الحاخامات فى ٢٧ يوليو ١٦٥٦، حكما بطرد سپينوزا وحرمانه كنسياً ورحب هو بمغادرة الجماعة. كان باستطاعته وهو العبقرى ذو الأصدقاء والرعاة من ذوى السلطة أن يحيا خارج المجموعة الدينية بأسلوب لم يكن أسلافه ومن سبقوه ليستطيعوه، وأصبح بذلك أول علمانى بالكامل يعيش خارج نطاق الأديان الرسمية المعترف بها. وبالرغم من ذلك، فقد ظل شخصية منعزلة لأن كلاً من اليهود والأغيار وجدوا فلسفته الحلولية التى تقوم على وحدة الوجود Panthiesm صادمة و«إلحادية».

كان سپينوزا يشارك ازدراء يهود المارانو للدين المُنزل، على الرغم من أنه كان يوافق ديكارت على أن فكرة «الله» ذاتها تحوى إثبات وجود الله. لكن، لم يكن هذا هو الرب المشخصن لليهودية/ المسيحية. كان إله سپينوزا هو المجموع الكلى للقوانين الطبيعية ومبدئها، متطابق مع النظام الذى يحكم الكون ومساوٍ له. لم ير أن الله هو «الخالق» أو «العلة الأولى» بل رأى أنه لا

ينفصل عن العالم المادى، أى أنه قوة حلولية تَلحم كل الأشياء فى وحدة وتناغم. حينما يتأمل البشر أنشطة أذهانهم، فإنهم بذلك يفتحون نواتهم على حقيقة الله الأبدية اللامحدودة التى تنشط داخلهم. خبر سبينوزا دراسته الفلسفية كشكل من أشكال الصلاة؛ كان تأمل الحضور الحلولى يملؤه رهبة ودهشة. وكما أوضح فى «رسالة قصيرة عن الله» (١٦٦١) فإن الإله ليس شيئاً علينا معرفته، بل هو أصل فكرنا، من ثم، فإن الفرح الذى نخبره حينما نصل إلى المعرفة هو الحب الفكرى العقلى لله. وعلى الفيلسوف الحق أن يُنمى المعرفة الحدسية، توهجات البصيرة التى تصهر فجأة كل المعلومات التى اكتسبها منطقياً وتمزجها فى رؤية جديدة مُدمجة، إدراك متسام ناجم عن الخطو خارج الذات أسماه سبينوزا «بهاء Beatitude».

لم يتبع غالبية مفكرى أوربا سبينوزا. كان إلههم يتباعد باستمرار، واعتُبر من تبنوا النظرة الحلولية للإله متمردين على النظام الرسمى. كانت معاهدة سلام وستفاليا (١٦٤٨) قد وضعت نهاية لحرب الثلاثين عاما وأوجدت نظام الدول القومية ذات السيادة. لكن هذا النظام الجديد للحكم لم يترسخ بين عشية وضحاها. لكن فيما رسّخ اقتصاد السوق الجديد نفسه، غدت عملية تغيير البنى السياسية للمجتمع بالغة الأهمية. وللإبقاء على إنتاجية الأمة كان لابد من إدخال المزيد والمزيد من الناس فى العملية الإنتاجية – حتى من ينتمون منهم إلى مستويات جد متواضعة مثل عمال الطباعة وصغار عمال المصانع، وعمال المكاتب. من ثم، كان هؤلاء بحاجة ولو إلى قدر قليل من التعليم لاستيعاب الأفكار والروح العامة الحديثة. وكما كان محتما، بدأ هؤلاء يطالبون بنصيب فى صناعة قرارات حكومتهم. وجُد أن الديمقراطية ضرورية للدول القومية ولاقتصاد السوق.. وسارت البلاد التى مقرطت قدما، فيما

تخلفت تلك التى حاولت حصر ثرواتها وميزاتها داخل الطبقة الأرستقراطية. كان من الطبيعى ألا تتخلى أية مجموعة نخبوية عن السلطة طواعية، من ثم لم تكن مقرطة أوربا عملية سلمية لكنها أُنجزت من خلال سلسلة من الثورات الدموية والحروب الأهلية واغتيال النبلاء، والديكتاتوريات العسكرية، وممالك الرعب.

مثلا، شهدت إنجلترا، خلال أربعينيات وخمسينيات القرن السابع عشر حرباً أهلية، وأعدم الملك تشارلس الأول (١٦٤٩) وتلا ذلك فترة من الحكم الجمهورى فى ظل حكومة بيوريتانية برئاسة أُليفر كروميل (١٥٩٩– ١٦٥٨). أصبح لدى كل من الطوائف البروتستانتية البيوريتانية الجديدة مثل اللفلرز Levellers والكويكرز Quakers والديجرز Diggers والماجلتونيانز Muggletonians أساليبها الثورية الخاصة للعبادة. رأوا أنه إذا كان الله يسكن الطبيعة. بل إنه، كما يقول البعض هو الطبيعة – إذاً، فليس ثمة داع لرجال الدين والكنائس، ولابد أن يتقاسم الجميع ثروات الأمة. رأى چورج فوكس (١٦٢٤– ١٦٩١) مؤسس «جمعية الأصدقاء»، أن على المسيحيين البحث عن نورهم الباطنى الخاص و«أن يستفيدوا من فهمهم للحقيقة بدون توجيه من أحد»! اعتقد أيضا أنه يجب أن يكون الدين «تجريبيا» فى عصر العلم، وأن تُختبر كل تعاليمه إمبريقيا بمضاهاتها بخبرات وتجارب كل فرد. أما ريتشارد كوبين فقد قال إن الله الموجود بداخلنا هو المرجعية الوحيدة الحقة. رأى چاكوب بوثيوملى أن عبادة إله مميز منفصل عن البشر والطبيعة وثنية لأن الله هو جوهر كل شيء، فيما توسل لورنس كلاركسون لله كلى القوة والحضور، أن يمكّن الناس من القضاء على الأرستقراطية.

لم يخمد توهج التدين المتحمس هذا بعودة الملك تشارلس الثانى إلى

obeikandi.com

العرش عام ١٦٦٠، بل إنه اختفى فقط تحت السطح. كانت السنوات الثلاثون التالية فترة توتر عظيم لأن الناس خشوا من اندلاع ثورة عنيفة ثانية. كان ثمة حال من ازدهار اقتصاد السوق فى لندن وجنوب شرق إنجلترا، لكن الفقراء ساءهم ازدهار الطبقات التجارية الجديدة، وسلطة إنجلترا التى كانت قد توطدت مؤخراً والميزات التى كان يتمتع بها طبقة ملاك الأراضى. طوّر رجل الدين وأستاذ الرياضيات بكامبريدج إيزاك بارو (١٦٣٠– ١٦٧٧) مذهبا أنجليكانياً ليبرالياً، أمل فى أن يساعد على إقامة مجتمع منظم منمذج على غرار النظام الكونى يلتزم فيه كل الناس بالبقاء فى مداراتهم وبالعمل معا بتناغم من أجل الخير العام. كان أحد أعضاء مجموعات المناقشة الذين ثابروا على الحضور هو الشاب إسحق نيوتن (١٦٤٢– ١٧٢٧).

أراد نيوتن، مثل ديكارت، أن يأتى بعلمٍ شمولى باستطاعته تفسير التجربة الإنسانية جميعها. لكن على حين أن مسعى ديكارت كان انفراديا منعزلا، فقد أدرك نيوتن أهمية التعاون فى مجال العلوم، أراد أن يؤسس على إنجازات سابقيه وأسلافه، وشعر، كما أبلغ صديقه روبرت هوك فى خطاب له، وكأنه «يقف على أكتاف عمالقة». لكن هؤلاء العمالقة تركوا وراءهم بعض الأسئلة دونما إجابة: ما الذى يُبقى على الكواكب فى مداراتها؟ لِم تسقط الأشياء الأرضية دوماً على الأرض؟ وفى محاضرات له نشرها عام ١٦٨٧، رأى أن العلم الشمولى ليس هو الرياضيات بل الميكانيكا، «التى تضع الفرضيات الدقيقة وتصل إلى البراهين من خلال القياسات». وكان لعلم الميكانيكا الشمولى الذى أتى به أن يبدأ بقياس حركات الكون ثم، وعلى أساس هذه الاستنتاجات، يمضى فى تفسير كل الظواهر الأخرى.

أنجز نيوتن رؤية تركيبية تجميعية رائعة جمعت فى نظرية واحدة فيزياء

ديكارت، قوانين كبلر لحركة الكواكب وقوانين جاليليو للحركة الأرضية . أثبت أن الجاذبية هى القوة الجوهرية الأساسية التى يعود إليها كل النشاط السماوى والأرضى. لكى تبقى الكواكب على مداراتها حول الشمس بسرعاتها ومسافاتها النسبية، فإنها تُجذب نحو الشمس بقوة جاذبة تتناقص عكسيا تبع تربيع المسافة التى تفصلها عن الشمس. يُجذَب القمر والمحيطات نحو الأرض وفقا لنفس القانون. ولأول مرة، تم تجميع الحقائق المنفصلة فى النظام الكونى معا فى نظرية شاملة. وأخيراً، أصبح النظام الشمسى مفهوما. أصبح بالإمكان تفسير كل شىء – مدارات الكواكب السنوية، دوران الشمس، حركات القمر، حركات المد والجزر فى البحار، حدوث الاعتدالين الربيعى والخريفى، الحجر وهو يسقط على الأرض. تتسبب الجاذبية فى أن تميل جميع الأجسام نحو بعضها تبادليا، كما أنها تمنع الكواكب من الطيران فى أنحاء الفضاء وتجعلها تحافظ على مداراتها المستقرة بالسرعات والمسافات النسبية التى حددها كبلر.

ولكى تكون النظرية «الميكانيكية الشمولية» شمولية حقا، كان لابد أن تفسر جميع الظواهر. ولعجز نظرية الجاذبية عن تفسير كيفية وجود النظام الشمسى، كان على نيوتن أن يأتى بسبب أصلى. رأى أنه «على الرغم من أن تلك الأجسام قد تستمر حقا فى مداراتها بواسطة قوانين الجاذبية فقط، لكن ليس باستطاعتها بأية وسيلة تحديد المواقع المنتظمة للمدارات بنفسها من خلال تلك القوانين. وُضِعت الشمس، والكواكب والمذنبات بتحديد فائق الدقة بدرجة أنها «لا يمكن أن تكون قد حدثت إلاّ بناء على رؤية وسيطرة كائن ذكى قوى». ومثل غالبية علماء القرن السابع عشر كان نيوتن على قناعة بأن المادة خاملة: ليس بإمكانها أن تتحرك أو تتطور إلا بفعل قوة خارجية. من ثم كان

وجود الله ضرورة حتمية للنظام بأكمله. وختم نيوتن بالقول «كفى هذا عن الله، فإن الحديث عنه ومحاولة استنباط وجوده بدراسة مظاهر الأشياء ينتمى بالتأكيد إلى الفلسفة الطبيعية».

وفى عمل لاحق أوضح نيوتن، أن النقاش حول الله، ذو أولوية فى مجال العلم:

«المجال الأول للفلسفة الطبيعية هو النقاش عن الظواهر بدون زعم فرضيات، واستخلاص الأسباب من النتائج، إلى أن نصل إلى العلة الأولى، غير الآلية بالتأكيد؛ ليس فقط من أجل كشف ميكانيكا العالم، بل بشكل أساسى لإيجاد إجابات هذه الأسئلة وأمثالها».

كان قد اعترف فى خطاب له إلى عالم الكلاسيكيات ريتشارد بنتلى (١٦٦٢- ١٧٤٢) أنه منذ البداية كان قد أمِل أن يعثر على برهان علميّ على وجود الله: «حينما كتبت بحثى عن نظامنا، أبقيت ناظريّ على المبادئ التى قد تفيد الرجال حينما، يبحثون عن ترسيخ العقيدة فى وجود الإله، ولم يكن ثمة ما بإمكانه أن يُدخِل علىَّ البهجة أكثر من عثورى على مبادئ تخدم هذا الهدف!» حينما درس التوازن الرياضى للنظام الشمسى، «أُجبِر على أن ينسبه إلى عقل وتدبير فاعل إرادى» الذى كان من الواضح أنه «فائق المهارة فى الميكانيكا والرياضيات». ليس بإمكان الجاذبية تفسير كل شىء، فقد يكون بمقدورها «إطلاق حركة الكواكب، لكن بدون القوى الإلهية، لا يمكنها أبدا موضعتها وإطلاقها فى مثل تلك الحركة الدائرة التى تتبعها حول الشمس». لا يمكن للجاذبية أن تفسر خطة الكون الرائعة. تدور الأرض حول محورها بسرعة حوالى ألف ميل فى الساعة لدى خط الاستواء، إذا نقصت هذه السرعة وأصبحت مائة ميل، سيطول الليل والنهار بمعدل عشرة أضعاف،

وستجفف حرارة الشمس الحياة النباتية أثناء النهار، ويتجمد كل شيء أثناء الليالى الطويلة. كان ثمة قوة استمرار داخلية تصون الحركات التى لاحظها نيوتن، لكن لابد وأنها فى الأصل «اقتضت قوة إلهية تنقل تلك الحركة وتطلقها».

بضربة واحدة، قلب نيوتن قرونا من الموروث المسيحى رأسا على عقب. كان اللاهوتيون، حتى آنذاك، قد رأوا أن الخليقة لا تستطيع إخبارنا شيئا عن الله؛ بل حقا، إنها تثبت أنه لا سبيل إلى معرفة الله. كانت «الطرق الخمسة» لتوماس الإكوينى قد أوضحت أنه وعلى الرغم من أن بإمكان المرء أن يثبت أن ما «يسميه البشر الله» قد خلق شيئاً من العدم، فمن المستحيل معرفة ما هو الله. لكن لم يخامر نيوتن أى شك فى أن «الميكانيكا الشمولية» بإمكانها تفسير كل خصائص الله. كان إدوارد پوكوك (١٦٠٤– ١٦٩١) أستاذ الاستشراق بأكسفورد قد أخبره أن اللفظ اللاتينى للإله deus مشتق من لفظ عربى يعنى السيد. رأى نيوتن فى قوانين الجاذبية التى تُبقى على أجزاء الكون المختلفة معا، دليلاً على تلك «الهيمنة» الإلهية، القوة الساحقة التى تتسيد الكون وتتحكم فيه. كانت تلك هى الخاصية الإلهية الجوهرية. «إنها هيمنة كائن روحى هى التى تشكل الله». لكن هذا الرب المهيمن كان مختلفا عن Ein Sof إله لوريا، أو جوهره اللامتناهى أو إله الثالوث الذى يفرغ ذاته. فبعد أن رسخ نيوتن سطوة الله أو هيمنته بصفتها الصفة الإلهية التى تعلو على كل الصفات، أصبح من الممكن له استنباط صفات أخرى. رأى أن دراسة الكون تثبت أن الله الذى خلقه لابد أن يتمتع بالذكاء، الكمال، الأزلية، اللانهائية، المعرفة الكلية والقدرة الكلية: «أى أنه، مستمر من عصر لعصر، حاضر من لانهائية إلى لا نهائية؛ يسيطر على كل شيء ويعرف ما يحدث وما باستطاعته أن يحدث».

وهكذا، تم اختزال الله إلى تفسير علمى ومُنح وظيفة فى الكون واضحة التحديد. فالله حقا «كلى الحضور، ليس على سبيل الافتراض بل إن حضوره واقعى» فى الكون، يعمل على المادة مثلما تعمل الإرادة على الجسد. وفى عام ١٧٠٤، كان نيوتن قد اعتقد أن جميع قوى الطبيعة المحركة هى تجسيدات فيزيقية لهذا الحضور الإلهى، هذا على الرغم من أنه لم يعبر عن تلك القناعة سوى لأصدقائه المقربين. أوضح لبنتلى أنه ليس ثمة قوة طبيعية واحدة تعمل مستقلة عن الله. فالله موجود مباشرة فى القوانين التى وضعها؛ فالجاذبية ليست مجرد قوة من قوى الطبيعة بل نشاط الله ذاته. الجاذبية هى مجرد «عامل يعمل باستمرار وفقا لقوانين تجعل الأجسام تتحرك وكأنما تجذب بعضها»:

«هل كانت الصدفة تعرف أن هناك ضوءا، وما انكساره، ثم، تبعا لذلك كيّفت أعين جميع المخلوقات بأسلوب بالغ الوعى، كى تستخدم هذا الضوء؟ هذه الاعتبارات وغيرها دائماً ما أجبرت البشر على الاعتقاد وستجعلهم دائماً يعتقدون أن ثمة كائنا صنع كل هذه الأشياء، ويُبقى كل الأشياء تحت سيطرته، ومن ثم، لابد من خشيته».

وهكذا أصبح وجود الله النتيجة العقلانية لحظة الكون المعقدة فائقة المهارة.

كان نيوتن مقتنعا أن هذا «الاعتقاد»، وهو لفظ كان يستخدمه بمعناه الحديث، هو الذى حفز دين البشرية البدئى القديم. فيما كان يعمل على كتابه Principia، بدأ بحثا بعنوان «الأصول الفلسفية للاهوت الأغيار» رأى فيه أن نوحاً قد أسس عقيدة تقوم على التأمل العقلانى للطبيعة. لم يكن ثمة كتاب منزل، معجزات أو أسرار. كان نوحاً وأولاده يتعبدون فى معابد مستنسخة

من الكون ذى المركزية الشمسية. علّمهم ذلك أن ينظروا إلى الطبيعة ذاتها بصفتها «المعبد الحقيقى للإله العظيم الذى يعبدونه». كانت هذه العقيدة الأولية «تفوق كل العقائد الأخرى عقلانية إلى أن أفسدتها الأمم». فالعلم هو الوسيلة الوحيدة للتوصل للفهم الصحيح للمقدس: «لأنه لا سبيل (بدون تنزيل) للوصول إلى معرفة الإله سوى من خلال نظام الطبيعة وهيكلها». من ثم، كانت العقلانية العلمية هى ما أسماه نيوتن «الدين الأساسى». لكنه اعتقد أنه فسد من خلاله «الأساطير البشعة، المعجزات الزائفة، وتبجيل الرفات، والتعويذات، ومبدأ الأشباح والشياطين وتدخلهم واستدعائهم وعبادتهم وغير ذلك من الخزعبلات الوثنية». كان مبدأ الثالوث والتجسد يثيران غضب نيوتن بخاصة، وكان يرى أثاناسيوس وغيره من لاهوتيى القرن الرابع من عديمى الضمير والمبادئ الأخلاقية قد أوهموا المؤمنين بصحتها.

كان تأمل توماس الإكوينى للنظام الكونى قد كشف له عن وجود لغز، بيد أن نيوتن كان يبغض الأسرار التى كان يساويها باللاعقلانية المحضة: كتب بانفعال يقول «إن ثمة نزوعاً لدى الجزء الساخن والمشعوذ من العقل البشرى أن يبدى ولعا، حينما يفكر فى شئون الدين، بالأسرار، ومن ثم فإنهم يفضلون ما لا يستطيعون فهمه على أى شىء آخر». اعتقد أن من الخطر البيّن أن نصفَ الله على أنه سر لأن ذلك «يؤدى، منطقيا، إلى رفض وجوده. إنه من بالغ الأهمية بالنسبة لعلماء اللاهوت أن يجعلوا إدراك الله بسيطا ومحببا بقدر الإمكان، وذلك من أجل عدم تعريضه للمماحكات والنقاش التافه الذى يؤدى إلى الشك». بالنسبة للعقلانيين الحداثيين المبكرين، لم يكن من الممكن للحقيقة أن تكون مبهمة، من ثم، فلابد أن يكون الله، الذى هو حقيقة، أن يكون عقلانيا، مقبولا منطقيا مثل أية حقيقة من حقائق الحياة.

سرعان ما أصبح لاهوت نيوتن العلمى مركزيا فى الحملة ضد «الإلحاد». أثناء تلك السنوات المتوترة، كان الناس يُبصرون «الملحدين» فى كل مكان، لكنهم كانوا مازالوا يستخدمون ذلك التعبير ليصفوا به أى شخص لا يلقى قبولهم، بغض النظر عن معتقداته/ معتقداتها؛ من ثم، تم توظيف «الإلحاد» كصورة للانحراف ساعدت الناس على أن يجدوا لأنفسهم موضعا لتقييم أنفسهم وغيرهم أخلاقيا وسط مدى المعايير المتغيرة فى الزمن الحديث المبكر. مثلا، فى تسعينيات القرن السابع عشر، كان يمكن التعرف على «الملحد» بإسرافه فى الشراب، الانحلال الجنسى، أو باعتناقه توجهات سياسية غير سليمة. لم يكن الإنكار التام لوجود الله قد أصبح ممكنا. بالطبع، كان الناس يخبرون الشكوك بين آونة وأخرى. وصف چون بانيان (١٦٢٨- ١٦٨١) «العواصف» «فيضانات التجديف» و«البلبلة والدهشة» التى كانت تخامره وحينها كان يعجب «ما إن كان ثمة إله فى الواقع أم لا». لكن، كان الرأى السائد هو أنه من المحال الحفاظ على مثل تلك الشكوك على أساس مستدام لأنه لم يكن ثمة وسيلة لتجاوز تلك الصعوبات المفاهيمية. لم يكن للمتشكك أن يجد دعما فى أكثر الأفكار تقدما آنذاك، لأنها جميعها كانت تصر على أن القوانين الطبيعية التى اكتشفها العلماء النابهون تقتضى وجود مُشرِّع لها. وبدون وجود مجموعة من الأسباب المنطقية يؤسَّس كل منها على مجموعة أخرى من الحقائق المثبتة علميًّا، فإن الإنكار الإلحادى الشامل لم يكن له إلا أن يكون نزوة شخصية عارضة.

لكن الخوف من «الإلحاد» ظل مثابرا، وحينما أراد رجال اللاهوت مجابهة «هرطقة» سپينوزا أو بعض الطوائف الدينية الجديدة، اتجهوا، تلقائيا، إلى العقلانية العلمية الجديدة. أسس الكاهن والفيلسوف الفرنسى نيكولا دو

مالبرانش (١٦٣٨- ١٧١٥) هجمته ضد الإلحاد على نظرية ديكارت. كان عالم الفيزياء والكيمياء الأيرلندى روبرت بويل (١٦٢١- ١٦٩١) والعضو المؤسس للجمعية الملكية، على قناعة أن الحركات المعقدة للكون الآلى تثبت وجود «مهندس» إلهى. كلّف بويل العلماء بإلقاء سلسلة من المحاضرات قصد بها مجابهة «الإلحاد» و«الخزعبلات» من خلال تعريف الجمهور باكتشافات العلوم الجديدة. أبدى القادة المسيحيون، من أمثال چون تليتسون، أسقف كانتربرى (١٦٣٠- ١٦٩٤) حماسا لاعتناق هذا الدين العلمى لأنهم اعتبروا العقل الطريق الأكثر موثوقية للوصول إلى الحقيقة. كان الذين ألقوا المحاضرات التى اقترحها بويل، جميعهم، من أتباع نيوتن المتحمسين، ودَعَم نيوتن نفسه هذا المشروع.

رأى ريتشارد بنتلى، فى المحاضرات التى ألقاها، أن آلة الكون الكفء، تقتضى «مخطِطا» خيّرا كلىَّ القوة. زعم صامويل كلارك (١٦٧٥- ١٧٢٩) الذى ألقى المحاضرات عام ١٧٠٤ أن «كل شىء تقريبا فى العالم، يبرهن لنا على هذه «الحقيقة» العظيمة؛ ويمدنا بالحجج التى لا سبيل إلى إنكارها لإثبات أن العالم بأجمعه، وكل شىء فيه، هى نتائج علة ذكية عليمة». رأى أيضا أن الرياضيات والعلوم فقط تستطيع مجابهة آراء الملحدين من أمثال سپينوزا، من ثم، فلا يمكن أن يوجد سوى «منهج أوحد للنقاش أو خيط مستمر له». لقد أثبتت ميكانيكا نيوتن ما ذكره الكتاب المقدس منذ وقت طويل أنه هو «الأعظم، الرب الذى يسمو على جميع أعماله، الباعث على الرهبة، المذهلة عظمته». اعتقد كلارك أن نيوتن قد دحض كل المتشككين الذين يعتقدون أن كل ما فى الطبيعة يدعم «الإلحاد» و«الكفر».

ونتيجة لمحاضرات بويل تلك التى كان لها أثر بالغ إلى حد بعيد، أضحى

كلارك أهم رجل لاهوت فى زمانه. كان إلهه محسوسا: «ليس ثمة شىء مما يسميه الناس مسيرة الطبيعة أو قوة الطبيعة. إن هذا لا يعدو أن يكون سوى إرادة الله التى تأتى بنتائج وآثار معنية بأسلوب مستمر، منتظم، دائم، مُوحّد». وهكذا، أصبح الله مجرد قوة من قوى الطبيعة. ألقى اللاهوت بنفسه تحت رحمة العلم. آنذاك، بدت هذه فكرة جيدة. فبعد كارثة حرب الثلاثين عاما، بدا أن الأيديولوجيا العقلانية التى بإمكانها التحكم فى الاضطرابات الخطيرة للتوجهات الدينية الحديثة المبكرة ضرورية لبقاء الحضارة. بيد أن الدين العلمى كان على وشك أن يجعل الله غير معقول أو مصدق. فمن خلال اختزال الله فى تفسير علمى، كان علماء وفلاسفة القرن السابع عشر يحولونه إلى صنم، مجرد إسقاط لتصور بشرى. ففيما أصر باسيل، أوغسطين وتوماس أنه ليس بإمكان العالم الطبيعى إخبارنا شيئاً عن الله، رأى نيوتن، بنتلى، وكلارك أن بإمكان الطبيعة أن تدلنا على كل ما نريد معرفته عن المقدس. لم يعد الله متعالياً متساميا، فى غير متناول اللغة والمفاهيم. وكما أوضح كلارك، بالإمكان تحديد خطوط إرادته وخصائصه، وقياسها، وإثباتها بوضوح فى اثنتى عشرة فرضية واضحة مميزة. كان الناس فى سبيلهم لأن يصبحوا خاضعين للعلم الجديد ومعتمدين عليه. لكن، ماذا كان عساه أن يحدث حينما وجد جيل جديد من العلماء بعد هؤلاء تفسيرا جوهرياً آخر للكون؟